سيد قطب ومعالم في الطريق

-٥-

الأخ عصام العطار

كان قد رغب إلينا عدد كبير من الشباب في أن نعيد نشر المقالات التي كتبها الأخ عصام العطار في جريدة المجتمع اللبنانية عن سيد قطب ومعالم في الطريق آخر سنة ١٩٦٥م وأول سنة ١٩٦٦م .. والتي توقفت باضطرار الأخ عصام العطار إلى الخروج من لبنان في تلك الظروف المعروفة للقراء .

ولقد استجابت (الرائد) لهذه الرغبة وبدأت بإعادة نشر هذه المقالات التاريخية التي نشرت ما بين اعتقال سيد واستشهاده رحمه الله ، وكان لنشرها ما كان من نتائج وآثار .

ونتابع نشر هذه المقالات الآن وقد مضى على استشهاد سيد قطب رحمه الله عشر سنوات .

الكاتب الحاقد

هو سيد قطب !! كما يحرص على تصويره أعداء الحق الذين يعملون بما يقولون ويكتبون على تشويه صورته المثالية في النفوس ، وعلى رسم صورة أخرى مباينة للواقع يُحِلّونها مَحَلّها ويطبعونها في الأذهان ..

وسيد قطب كما يصوره هؤلاء كاتب امتلأ قلبه بالحق الأسود على الناس وعلى المجتمع ، وبالكراهية لكل ما يعود عليهم بالوئام والسلام والخير .. كاتب يغرس بما يكتبه بذور الضغينة والحسد والقسوة والعنف والبغضاء والشحناء والخلاف والنـــزاع والفرقة والتدابر ، ويقتل معاني الحب والتسامح والتفاهم والتعاون بين الناس .. ولكن ما هو دليلهم على ما يدعون أو يفترون إذا أردنا التعبير الصادق المطابق لواقع الحال ؟ لا شيء عندهم على الإطلاق إلاّ الادعاء وتكرار الادعاء بمختلف وسائل الإعلام ، ليجعلوا هذا الذي يقولونه مألوفاً بكثرة الترداد ، وليُثْبِتوه بذلك في عقول السامعين أو القارئين ، وهو في الحقيقة -وفي أنفسهم أيضاً- البهتانُ أبشع البهتان .. وهذه هي آثار سيد قطب بين أيدينا -وهي كثيرة متعددة الأشكال الفنية والموضوعات- لا أقول أنها بجملتها وبأي جزء من أجزائها لا تشهد لهم ولا لأي ادعاء من ادعاءاتهم الباطلة ، لا أقول هذا فقط ، ولكنني أقول أيضاً واثقاً كل الثقة بما أقول : أن كل كلمة خطها قلم سيد قطب في أي كتاب من كتبه أو مقالة من مقالاته تناقض تمام المناقضة ما يفترونه عليه ، وتصلح أن تكون أبلغ شاهد على نقيض ما يؤكدون ! .. ولقد جمعني مجلس ببعض هؤلاء المفترين الوقحين ، وكانوا ممن يزعمون أنهم لا يأخذون إلاّ بـ (الدليل المادي) الملموس ، فتحديتهم أن يقدموا أي دليل على ما يفترونه على سيد بما يقولون ويكتبون ، وأن يأتوا ببرهانهم إن كانوا صادقين . وطال بنا المجلس و لم يأتوا بأي دليل ، لأنهم -شهد الله-

ما كانوا قط من الصادقين ، و لم يكن أكذب منهم في هذه القضية على الخصوص . وقال لي أحدهم بعد أن استبان عجزُهم أوضح ما يكون ، وسُدَّ في وجههم كل باب يلفون منه ويدورون .. قال لي –وقد اطَّرَحَ ما كان يزعمه ورفاقه من استمساك بالدليل المادي الملموس ، ولجأ إلى الفرضيات الباطلة ، والاستنتاجات الخاطئة ، والمنطق الفاسد:

لا بد أن يكون سيد قطب حاقداً لأنه لم ينل ما ناله أمثاله من مطالب الدنيا ، وهذا من موجبات الحقد .. ولا بد أن يكون حاقداً بعد السنوات العشر التي قضاها في السجن !

قلت : إنك لا تعرف سيد قطب ولا تعيش في عالمه الذي يعيش فيه ؛ ولكنك تقيسه على نفسك ولا تعيش في عالمه الذي يعيش فيه ؛ ولكنك تقيسه على نفسك ، وتجعله يشعر بشعورك ، ويفكر بمنطقك ومنطق عالمك الضيق المحدود .. ولو قبلنا منطقك هذا لكان كثير من أنبياء الله ومن عظماء البشر الصالحين المصلحين المجاهدين الذين كانوا ينابيع حب وهداية وخير حاقدين !!! لأنهم قد فاتهم في دنياهم أو تخلوا بأنفسهم عما يطلبه الناس من حظوظ النفس، ولأنهم قد لاقوا على أيدي الطواغيت من أصناف الشدة والبلاء ما تقشعر عند سماعه الأجساد !!! ثم قل لي : ما الذي طلبه سيد قطب لنفسه ثم فاته الوصول إليه ؟ ومن أين لك أنه يطلب من الدنيا ما يطلبه الذين سميتهم أمثاله من الناس ؟ ومن أخبرك أنه قد كان في سجنه حانقاً كارهاً لما يلقاه في سبيل الله عزَّ وجلّ ؟ إنّ سيد قطب لم يطلب المال حتى يقال إنه يحقد لما فاته من المال ولو أنه طلبه أو قبل به لكان عند قدميه ، و لم يطلب السلطان حتى يقال أنه يحقد لما فاته من السلطان ولو أنه طلبه أو قبل به لكان له منه قدر كبير ، و لم يطلب الجاه وإن كان الجاه بعضَ ما حباه الله إياه .. ولكنه كان أكبر من ذلك كله ..

لقد طلب وجه الله والدار الآخرة فهانت الدنيا عليه كل الهوان ، وكانت مطالب الناس فيها أقل في عينيه من التراب ، وأحقر من أن تؤثر في قلبه الكبير الكبير ، فضلاً عن أن تتحكم فيه وفي سلوكه كما تريد . ثم إنّ سيد قطب الآن وهو في أعماق سجنه الرهيب الذي دخله من جديد ، وهو في الوضع الذي تطلب فيه الدنيا بعدائه ، ويجتلب البلاء بحبه والدفاع عنه ، إنه الآن في وضعه الذي هو فيه ، والظروف التي تحيط به ، أعظم في قلوب المؤمنين في كل بلد عربي وإسلامي من أصحاب الكراسي والعروش .. ولقد رأينا من هؤلاء الرؤساء والملوك من يظهر الناس له الاحترام حاكماً حتى إذا سقط عن الحكم سقطت فوقه اللعنات ، وأُغْلِقَ في وجهه كلُّ قلب وكل باب .. أما سيد فيجلس على عرش من الحب الدائم الخالص في الله عزَّ وجلَّ ملءَ القلوب والعقول ، عرشٍ لا ينـــزل عنه ما استقامت خطاه على صراط الله المستقيم .. أما السجن الذي ذكرتَ أمره وأثره في نفس سيد فقد عاش فيه في عالم إيمانه وقلبه وفي ظلال كتاب ربه فترةً قال عنها في مقدمة كتابه في ظلال القرآن : {الحمد لله .. لقد منَّ عليّ بالحياة في ظلال القرآن فترة من الزمان ، ذقت فيها من نعمته ما لم أذق قط في حياتي . ذقت فيها هذه النعمة التي ترفع العمر وتباركه وتزكيه .

لقد عشت أسمع الله –سبحانه– يتحدث إليّ بهذا القرآن .. أنا العبد القليل الصغير .. أي تكريم للإنسان هذا التكريم العلوي الجليل ؟ أي رفعة للعمر يرفعها هذا التنـــزيل ؟ أي مقام كريم يتفضل به على الإنسان خالقه الكريم ؟

وعشت –في ظلال القرآن– أنظر من عُلو إلى الجاهلية التي تموج في الأرض ، وإلى اهتمامات أهلها الصغيرة الهزيلة .. أنظر إلى تعاجب أهل هذه الجاهلية بما لديهم من معرفة الأطفال ، وتصورات الأطفال ، واهتمامات الأطفال .. كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، ومحاولات الأطفال . ولثغة الأطفال .. وأعجب .. ما بال هذا الناس ؟! ما بالهم يرتكسون في الحمأة الوبيئة ، ولا يسمعون النداء العلوي الجليل . النداء الذي يرفع العمر ويباركه ويزكيه {؟

ولقد دخل سيد قطب السجن وكان بإمكانه أن لا يدخله ، وبقي فيه وكان بإمكانه أن يخرج إلى ما يشاء من جاه ومال ومنصب .. لو أنه آثر الدنيا على الآخرة وبرد الراحة والسلام على متاعب الجهاد .

❍ ❍ ❍

والحق أن أعداء سيد إلى غيظهم ونقمتهم وكون بعضهم مسخراً للنيل منه والكذب العمد عليه بما يملكون من حيلة ووسيلة .. لا يستطيعون أن يفهموه تمام الفهم ، ولا يملكون إلى ذلك السبيل ، لأن الفهم يحتاج إلى نوع من المشاركة ، وهيهات ! هيهات ! أين الحضيض الذي يعيشون فيه من السماء التي يعيش فيها !! ..

وأين قلوبهم المظلمة المغلقة من قلبه المشرق وبصيرته النيرة وأفقه الذي لا يعرف الحدود ؟! ..

إنهم يقيسونه بأنفسهم ! وشتان بين الطين اللاصق بالأرض والروح الضاربة في أجواز الزمان والمكان ، المحلِّقة أبداً إلى حيث لا يرتفع إلاّ جناح الإيمان ..

إنّ وجودهم كله في أبصارهم الكليلة وبصائرهم المحجوبة ينحصر عندهم في عمرهم القصير الذي يحكي ومضة البرق أو غمضة العين ..

وإن عالمهم الذي منه لَذّتُهم وألمهم ، وسعادتهم وشقاؤهم ، ودوافعهم وأهدافهم ، يتحدّدُ بحواسِّهم ، وحاجاتهم المادية ، ومطالبهم الدنيوية .. فإذا ضاعت عليهم هذه الأشياء ضاع عليهم هذه الأشياء ضاع عليهم وجودهم كله ، وفي سبيلها يقاتلون وبسببها يحبون ويكرهون ، ويسعدون أو يتجرعون مرّ الشقاء ..

وإذا بلغوا من هذه الأشياء المتقدمة ما يحبون كان ذلك عندهم غاية الأرب ونهاية الفوز ، وإذا لم يبلغوا شيئاً منها كان ذلك أعظم الخيبة والخسران وأكبر الشقاء .

وإنهم ليحسدون كل من نال ما فاتهم أن ينالوه من هذه الأشياء ويحقدون أشد الحقد على كل من يقف في طريق ما يطلبونه منها ، ويسلكون إليها كل وسيلة ، فهي التي تبرر كل واسطة ، وهي المقياس -عندهم- لكل تصرف

ليس لهم -في ظنهم- إلاّ دنياهم هذه وإلاّ عمرهم هذا المحدود .. فإذا ذاقوا فيه الشقاء والبلاء فليس لهم سعادة من بعد ولا أمل .. ولذلك فهم قياساً على أنفسهم وواقعهم لا يرون غريباً أبداً أن يحقد سيد قطب أشد الحقد ، وأكثره سواداً ، وأن ينفث من قلمه المرهف السموم ، ويغرس به الحقد ، ويزرع كل ما يدفع المجتمع إلى الخراب

ولكن سيد قطب -وكل مؤمن مدرك خالص الإيمان- يعيش في عالم آخر غير هذا العالم ، وعلى مستوى آخر من الفهم والتفكير والشعور والسلوك ..

إنه يؤمن بأن وجوده لا ينحصر في عمره المحدود ، وأن عمره في الدنيا ليس إلاّ مرحلة قصيرة جداً من وجوده الممتد الطويل الطويل .. فلا تغره الدنيا ، ولا يكون فيها إلاّ كعابر سبيل ، ولا ينظر إليها إلاّ على أنها معبر لما بعدها ، ودار ابتلاء لا دار جزاء .. ولا يهمه منها إلاّ أن يحقّق الغرض من وجوده فيها ، ويبلغ عن طريقها بصدق العبودية لله عزَّ وجلَّ والامتثال لأمره وتبليغ رسالته ما يشتاقه وينشده من رضوان الله وجنة الخلد ..

وإذا كان الجاحدون بالله والدار الآخرة يرون وجودهم وعالمهم محصوراً في واقعهم المادي الدنيوي ، وفي هذه الفترة القصيرة من الزمن ، وإذا كانوا يحسون لذلك الضآلة والعَرَضِيَّةَ والوقتية والقلق والضياع ، ويتكالبون على ما يمكن أن يقتطفوه من متاع ، وتتحكم فيهم نوازعهم ودنياهم فيكونوا بذلك أشبه بالحيوان .. فإن المؤمن المدرك الصادق الإيمان لَيُحِسُّ بحسن صلته وارتباطه بالله الباقي القادر خالق الناس وخالق الدنيا وخالق السموات والأرض والكون بكلّ ما فيه من ظاهر وخفي ومعروف ومجهول ، وبإيمانه بالدار الآخرة والحياة الخالدة بعد الموت .. إنه ليحس بهذا كله الضخامة والارتفاع والامتداد والاستعداد والقوة والأمن .. فيصغر عنده الواقع المحدود الموقوت ، والدنيا الزائلة الفانية ، فلا تعود هي التي تستبعده وإنما هو يستبعدها ، ولا تتحكم فيه وإنما هو يتحكم فيها ، ولا تكبله بمخاوفها ومغرياتها وقد ارتفع بإيمانه فوقها ، وفوق ما فيها من مخاوف ومغريات ، وأصبح أكبر منها وأخلد ، ولا يصدر عن أهوائها ونوازعها وإنما يصدر فيها عن الحق المطلق ، ويتحرك بأمر ربه عزَّ وجلّ .. ويملك بذلك أن يكون صاحب رسالة ، وأن يطل على مجتمعه -وهو فرد من أفراده- من علو ، وأن يخاطبه ويعمل فيه بتجرد ، وأن يوقظه من غفلته ، ويخرجه من الظلمة إلى النور ، ويسلك به طريق الخلاص والنجاة والفوز ..

إنّ مثل هذا المؤمن لا يمكن بحال من الأحوال أن يتولد في قلبه حقد ولا حسد ، وأن تفيض جوانحه إلاّ بالحب والرحمة ، وأن يستولي على تفكيره إلاّ تبليغ أمر ربه ، وإقامة أمر دينه ، وإنقاذ إخوته في الإنسانية ، وهدايتهم إلى الخير ، وإلى ما فيه صلاحهم دنيا وآخرة .. بل إنّ المؤمن يعتقد أنه لا يتم إيمانه حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه من الهداية والخير ..

وهو عندما يكافح لهداية الناس وإنقاذهم ، لا يطلب منهم أجراً ، ولا ينتظر منهم نفعاً ، ولا يصده إعراض ولا جحود ، ولا ما يصيبه من شدة وبلاء ..

وإذا أصابه الأذى ، لا يحقد كما لا يحقد الطبيب على المريض ، ولا يكون منه إلاّ الحسرة على من آذوه وأعرضوا عنه ، والأسف لهم أن يخسروا أنفسهم ومستقبلهم ويسلكوا سبيل الهلاك ..

وما أروع ما يجسم ذلك قدوةُ المؤمنين محمد ﷺ ، وقد أصابه من المشركين بلاء شديد ..

قال له بعض أصحابه : ألا تدعو عليهم يا رسول الله ! قال ﷺ : « إِنِّي لَمْ أُبْعَثْ لَعَّانًا .. وَإِنَّمَا بُعِثْتُ داعِيَاً ورَحْمَةً ، اللهم اهد قومي فإنهم لا يعلمون »

❍ ❍ ❍

هذه هي العقيدة والنظرة التي جعلت سيد قطب يطِلُّ على الواقع القائم في بلده وعالمه من فــوق ، ويتعامــل في مواقفه فيه مع الله عزَّ وجلَّ ، لا مع الأهواء والشهوات والمنافع ..

الكسب الحقيقي عنده هو مرضاة الله والقيام بالواجب ، ولو خسر كل ما يعبد الناس من دون الله ..

والخسران المبين عنده في غضب الله والنكول عن الواجب ولو حيزت له الدنيا كلها .. هذه هي العقيدة والنظرة التي جعلت سيد ينظر إلى اهتمامات الجاهلية كما ينظر الكبير إلى عبث الأطفال ، وإلى مطالبها التي يندفع فيها الناس ويتقاتلون عليها ويعدونها أكبر الكسب على أنها (حمأة وبيئة) تستثير الاشمئزاز والحسرة على الناس ، فلا يملك إلاّ أن يصيح : ﴿ **يَا حَسْرَةً عَلَى الْعِبَادِ !** ﴾

هذه هي العقيدة والنظرة التي جعلت سيد يملك أن ينظر من علو ، وأن ينظر أيضاً بحب وعطــف ، لأنــه لا يسابق أحداً إلى متاع الدنيا ومكاسبها الزائلة حتى يحقد عليه إن ظفر بها دونه ، ولا ينتظر من أحد غير الله شيئاً حتى يحقد عليه إن لم يكن ما ينتظر .. ولأنه قد وطَّن النفس على احتمال كل شيء من أول الطريق .. ولكن مــا بــالي أستبق ها هنا الأمور ، فهذه أشياء سيأتي عليها الكلام ..

ولقد سرنا وحدنا شوطاً غير قصير فلنرجع إلى سيد ولنستمع إليه مباشرة ، ولنلتمس عنده مصداق ما نقــول ، ولنواكبه خطوة خطوة فيما بقي لنا من الطريق ، فهو أبين عن نفسه ، وأقدر على دفع أباطيل الخصوم .. وليس آنس لقلب المؤمن ولمن ينشد الكلمة المخلصة والحق الصريح ، من صحبة هذا الكاتب الكبير والإنسان العظيم .